

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

تبارك الله سبحانه ما أعظم شأنه، وأظهر برهانه، هو ذو العرش الأعلى، و مبدع السماوات العلى، الذي كان و لازمان و لا مكان، فأوجد الخلائق بقدرته الكاملة، و أظهر الحقائق بحكمته البالغة، أبدع العقول و بهجها في مشاهدة آثار جلاله، و اخترع الأجرام العلوية و أدارها في اشتياق كماله، و أودع في أدوار دورانها ظهور ما علم في القدم، على نهج ما رقم في اللوح بالقلم .

ثم أظهر الأسرار اللاهوتية في المرأة الناسوتية، فخصص نوع الإنسان بالتكريم و الإحسان، و جعله مظهراً للطائف صنعه و مظهراً لعجائب فعله، فاجتبي منه الأنبياء، و اصطفى من بينهم سيد الرسل و الأصفياء ﷺ مفاتيح الهدى و مصابيح الدجى .

أما بعد، فيقول الفقير إلى الله الغني محمد بن أحمد الخفري؛ لما كان أعلى المطالب و أسنى المآرب معرفة ذات الله تعالى و صفاته و أفعاله، أردت تأليف رسالة مشتملة على بيان بعض لطائف سيد الآيات، يعني آية الكرسي التي هي محتوية على أمهات مسائل الإلهيات، و لما تم ترقيمها جعلتها تحفة لعالي حضرت، من أيده الله تعالى بالنصر و الظفر، و جعل في سطوع دولته سعادة البشر، تزينت الدنيا بظهور شوكته الزاهرة، و تنورت الأرض بلمعان أنوار سياسته الباهرة، درت أخلاق رأفته على الأفاضل، و قرت بمشاهدة جلاله عيون الأعيان و الأمثال، فهو اليوم منبع الخيرات، و مجمع السعادات، و ملاذ بني نوع الإنسان .

و رتبها على مقدمة، و مقصدين، و خاتمة .

أما المقدمة :

المطلب الأول

ففي ذكر أقسام الموجودات على الإجمال

و اعلم أن الموجودات من حيث هي موجودة لها حكم، و من حيث هي تنقسم إلى خصوصية الملك و الملكوت الأدنى و الملكوت الأعلى و عالم المثال لها حكم آخر،

فالموجود الحقيقي - الذي هو موجود باعتبار ذاته ووجد لغيره - هو الحق، وآثاره الصادرة عنه - التي هي موجودة باعتبار الارتباط إليه تعالى وهي المسمّاة بالعالم - تنقسم إلى أقسام أربعة:

أحدها: عالم الملك الذي يسمّى «عالم الخلق والشهادة» وهي تنقسم إلى الأفلاك والعناصر والموايد.

أما الأفلاك الكليّة فتسعة، تدلّ عليها تسع حركات متخالفة - على ما هو المشهور - أعلاها - وهو المسمّى بالفلك الأطلس - متحرّكٌ بالحركة السريعة اليومية، و محرّكٌ لجميع العلويات، وعظيمة بحيث يكون قطرة أعظم من سبعين ألف ألف، فرسخ بمقدار ضعف ثخنه الذي لا يعلم مقداره إلا خالقه جلّ و علا، وسرعة حركته بحيث يتحرّك في زمان - يقول فيه أحد لفظاً واحدة - ألفين وأربعمائة فرسخ من مقعره، على ما بيّنته في منتهى الإدراك^١.

وقيل: إن هذا الفلك هو العرش.

فإن قيل: ما وقع في الحديث النبوي ﷺ - من تصوير عظمة العرش من: «أن الله تعالى خلق ملكاً له سبعون ألف جناح، و طار سبعين ألف سنة، لم يصل في ذلك الزمان من قائمة من قوائم العرش إلى قائمة أخرى»^٢ - يدلّ على أن العرش أعظم من هذا الفلك على الوجه المذكور.

قلت: يمكن أن يقال: ما وقع في الحديث تصوير عظمة جرمه باعتبار المحدث و ثخنه، و المقدار المذكور من الفراسخ إنما هو مقدار قطر مقعره.

و من أجل هذا الحديث قيل: إن العرش هو الزمان المحيط بالحوادث، القائم بالحركة السريعة التي جريها مشابه لجري المياه.

ولهذا قال النبي ﷺ: «كان الله و لم يكن معه شيء» و «كان عرشه على الماء»^٣.

وقيل: إن [العرش] هو مجموع الممكنات، و لهذا قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٢٠). (٥).



١. لم نعره عليه في الجوامع الروائية حسب تتبعنا

٢. لم نعره عليه في الجوامع الروائية حسب تتبعنا

٣. الدر المنثور، ج ٤، ص ٤٠٣

و قيل : إنَّ العرش هو العقل الأوَّل المسمَّى بعقل الكلِّ ؛ فإنَّه محيط بجميع الممكنات التي بعده .

و تاليه الفلك الثامن الذي محدَّبه مماسٌ لمقعرِّ التاسع ، و فيه خلق جميع الكواكب التي غير السبعة السيَّارة ، و يكون مقدارُ قطره المقدارَ المذكور الذي هو قطر مقعرِّ الفلك التاسع ، و هو متحرِّك بالحركة البطيئة التي يتمُّ دوراتها في خمسة و عشرين ألف سنة تقريباً . مع أنَّه يتحرَّك كلَّ يوم ثلاثاً و ثلاثين فرسخاً - على ما بينت في الكتاب المذكور - و مع ذلك لم تدرك حركته في الرصد إلا بعد سبعين سنة ، فسبحان مَنْ خلق جسماً يتحرَّك كلَّ يوم ثلاثاً و ثلاثين فرسخاً ، و لم يدرك مجتمع من هذه المسافة في خمسين سنة في الأرصاد ، لعظمته ، و صور البروج إنَّما تكون في هذا الفلك . و أمَّا البروج المعترية عند الجمهور ، فهي إنَّما تكون في الفلك التاسع .

فإن قيل : يترتَّب الآثار على البروج عند المنجمين ، هل هي آثار لصور البروج ، أو آثار للبروج التي هي في الفلك التاسع ؟
قلت : الآثار على ثلاثة أقسام :

أحدها : يترتَّب على صور البروج من خواصِّ الكواكب و الصور .
و ثانيها : يترتَّب على البروج الكائنة في الفلك التاسع من الانقلاب و الثبات و غيرهما .
و ثالثها : يترتَّب على مجموع الصور و البروج ، فعلى ما ذكر يمكن أن يحمل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبُرُوجِ ﴾ (البروج ٨٥ : ١) على كلِّ من هذين الفلكين ، كما لا يخفى .
و أمَّا الأفلاك الباقية ، فأعلاها خلق فيه زحل و جعل مظهر الآثار الجلالية ؛ و لهذا جعل أبعد من المشتري الذي جعل مظهر الآثار الجمالية ، فخلق المشتري في الفلك السادس الذي محدَّبه مماسٌ لمقعرِّ فلك زحل .

و أمَّا الفلك الخامس ، فخلق فيه المريخ الذي هو مظهر الآثار الجلالية أيضاً .
و أمَّا الفلك الرابع ، فخلق فيه الشمس ، و محدَّبه مماسٌ لمقعرِّ فلك المريخ ، و مقعره مماسٌ لمحدِّب فلك الزهرة التي هي مظهر الآثار الجمالية أيضاً ، فانظر إلى هذا النظام الأعلى ؛ فإنَّ نحوسة زحل تندفع بسعادة الزهرة .

و أمَّا الفلك الثالث ، فخلق فيه الزهرة التي هي مظهر الآثار الجمالية .
و أمَّا الفلك الثاني ، فقد خلق فيه عطارد ، و محدَّبه مماسٌ لمقعرِّ فلك الزهرة ، و مقعره مماسٌ لمحدِّب فلك القمر ، و به تنتهي الأفلاك . و مقدار قطر عالم الكون و الفساد الذي

هو محاط لفلك القمر خمسة وثمانون ألف فرسخ و خمسمائة فرسخ تقريباً .

و هذا العالم ينقسم إلى أجسام بسيطة و مركبات .

و البسائط أربعة : النار و الهواء و الماء و الأرض ، و مقدار محيط الدائرة العظيمة المحيطة على الأرض ثمانية آلاف فرسخ ، و مقدار قطرها ألفان و خمسمائة و خمسة و أربعون فرسخاً .

و لما كان الحاصل من ضرب القطر في محيط الدائرة العظمى في الكرة تكسير سطحها ، كان سطح الأرض عشرين ألف ألف و ثلاثمائة و ستون ألفاً ، و ربعه تكسير الربع المسكون .

و أما المعمور من الأرض ، فهو قريب من سدس جميع سطح الأرض و سدس عشره ، و هي ثلاثة آلاف و سبعمائة و ستة و خمسون ألفاً و أربعمائة و عشرون فرسخاً ، و الأرض مع عظمها لا قدر لها في الحسّ بالنسبة إلى الأفلاك . و كيف لا ، و الشمس مع صغرها في الحسّ بثلاثمائة و عشرين مثل الأرض ، كما بيّنته في الكتاب المذكور .

و أما المركبات فهي على قسمين :

أحدهما : غير تام التركيب ، كالغمام و أمثاله .

و الثاني : تام التركيب ، و هو على ثلاثة أقسام :

أحدها : المعدنيّات ، و عدد أنواعها ثلاثمائة و ستون على عدد درجات الأفلاك .

و ثانيها : النباتات ، و لا يمكن حصرها .

و ثالثها : الحيوانات ، و عدد أنواعها - على ما ألف - ألف و أربعمائة ؛ إذ عدد أنواع

الحيوانات البحرية ثمانمائة ، و عدد أنواع الحيوانات البرية ستمائة .

و هذا كلام إجماليّ في أقسام الأجسام السفلية و الأجرام العلوية .

و أما عند التفصيل ، فعدد الأفلاك ما ينتهي إلى أربعة و عشرين ، على ما هو المشهور عند الجمهور ؛ لأنهم أثبتوا للحركة السريعة الفلك الأطلس ، و للحركة البطيئة الثابتة للثوابت الفلك المسمّى بفلك البروج ، و أثبتوا لسرعة حركة فلك الشمس و بطئها و انتقال أوجه اثنين : الممثل و الخارج المركز ، و أثبتوا السرعة حركة فلك القمر و بطئها و ازديادهما و انتقال أوجه و جوزهرة أربعة أفلاك : الجوزهر و المائل و الحامل و التدوير . و لسرعة حركة عطارد و بطئها و ازديادهما و انتقال أوجه أثبتوا أربعة أفلاك له : الممثل و الحامل و التدوير و المدير . و لسرعة حركة الزهرة و بطئها و ازديادهما و انتقال أوجه أثبتوا ثلاثة

أفلاك : الممثل و الحامل و التدوير . و كذلك أثبتوا لكل من العلوية ثلاثة أفلاك : الممثل و الحامل و التدوير و هذا على الهيئة المشهورة .

و أمّا على الهيئة التي هي مشروحة في منتهى الإدراك الذي ألفتة و - أثبت للقمر بسبب سرعة حركته و بطئها و ازديادهما و انتقال أوجه و جوزهره و تشابه حركة مركز تدويره عند مركز العالم و محاذاة قطر تدويره لنقطة المحاذاة عشرة أفلاك ، و لعطارد بسرعة حركته و بطئها باقي الأحوال المذكورة و تشابه حركته في العروض أثبت ثلاثة عشر فلماً ، و للزهرة للأحوال المذكورة و أحوال عروضه أثبت ثمانية أفلاك - فجميع الأفلاك التي أثبتت في الكتاب المذكور ثلاثة و ستون فلماً ، عددها مع عدد العناصر و المواليد يرتقي سبعين ، فزيادة تسعة و ثلاثين فلماً على ما هو المشهور لينحل جميع الإشكالات الستة عشر المشهورة التي أعيت ذوي نهاية الإدراك في دراية الأفلاك ، و عجزت عن حلها الحكماء ، كما شهدت المصنّفات الكبرى .

فهذا أنموزج في بيان عالم الملك .

و أمّا عالم الملكوت الأعلى - و هو عالم العقول - فطبقاته بعدد هيوليات العالم الجسماني ، و المشهور أنها عشرة مترتبة من العقل الأول الذي هو آلة لإيجاد الفلك الأطلس إلى العقل العاشر الذي هو آلة لإيجاد عالم الكون و الفساد ، و هو المسمى بروح القدس و جبرئيل عليه السلام .

و قيل : عدد العقول إنّما هو بعدد الأنواع المتحققة في عالم الملك .

و قيل : عددها إنّما يكون بعدد الأفلاك كلية أو جزئية ، لكن ينتهي سلسلة العقول إلى عقل هو آلة لفيضان عالم الملك السفلي .

و على التقادير تتصف العقول التي هي صور روحانية بأنها جواهر مجردة عن المواد ، منزّهة عن الفساد ، و مدركة لذواتها و لما عداها بذواتها غير متعلّقة بالأجسام ، كما دلّ عليه البرهان ، و نصّ عليه في السنة و القرآن ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفَوْنَ ﴾ و ﴿ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات (٣٧) : ١٦٦-١٦٥)

و قال الله تعالى : ﴿ وَ الصّٰفّٰتِ صَفّٰ ﴾ (الصافات (٣٧) : ١)

و قال الله تعالى : ﴿ فَالَسّٰبِقٰتِ سَبِقًا ﴾ * فَالْمُدْبِرٰتِ أَمْرًا ﴿ (الصافات (٣٧) : ٥-٤) فإنّ قوله تعالى : ﴿ فَالَسّٰبِقٰتِ سَبِقًا ﴾ إشارة إلى المفارقات من العقول و قوله : ﴿ فَالْمُدْبِرٰتِ أَمْرًا ﴾ إشارة إلى النفوس المجردة .

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»^١، وهذا مؤيد لكون العرش عبارة عن الفلك الأعلى.

وقال ﷺ: «خَلَقْتُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورٍ»^٢، فالعقول أنوار قاهرة مؤثرة فيما تحتها من النفوس والأجرام بتأثير الله تعالى فيها، فقاهريتها - التي هي تأثيرها في غيرها - صورةُ صفةِ قاهريّة الله تعالى وأثر من آثار قدرته تعالى، كما أن نوريتها سبحة من سبحات وجهه، وبهذا الاعتبار تسمى العقول بالملائكة المقربين وعالمها عالم القدرة.

وكما تفيض منها صورة الأشياء وحقائقها بإفاضة الحق سبحانه، فكذلك تفيض منها صفاتها وكمالاتها التي يجبر نقصانها، وبهذا الاعتبار يسمى بعالم الجبروت، وهي صورة صفة جبارية الله تعالى.

ومعلوم أن تلك الحقائق والكمالات الفائضة منها لو لم يكن ثابتة فيها لم يمكن فيضانها عنها، فإذن تلك الحقائق بأعيانها وكمالاتها منتقشة فيها، وبهذا الاعتبار تسمى بالعقول، وذلك الانتقاش هو صورة القضاء الإلهي، فمحلّه عالم الجبروت، وهو المسمى بأم الكتاب الذي أشار إليه بقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ١٣: ٣٩) وكل ما يفيض من العلوم الحقة الموسومة بالعلوم الدينية يفيض عنه، كما قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤٣: ٤) وقال الله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ*﴾ (العلق: ٩٦: ٣-٤)

وتلك الجواهر العقلية هي خزائن الغيب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (الحجرات: ١٥: ٢١) ولا شك أنها متعالية عن تعلق الزمان، مقدسة عن تغير الحدثان. فهذا أنموذج في بيان عالم العقول الذي هو الملكوت الأعلى.

وأما عالم الملكوت الأدنى، فهو عالم النفوس المجردة المدبرة إما للأجرام السماوية أو الأبدان الإنسانية؛ فإن الأجرام السماوية لها نفوس مجردة، لها إدراكات وإرادات جزئية بآلاتها، كالنفوس الإنسانية بعينها، يشترك كل من النفوس المجردة الفلكية إلى كمال جوهر روحاني هو آلة لفيضانها و إلى التشبه به بقدر الإمكان؛ لإدراكها بعض كمالاته، فطلب بالإرادة وصفاً كلياً؛ ليستعد به لذلك التشبه.

١. الفردوس بمأثور الخطاب، ج ١، ص ١٧٤، ح ٦٤٩

٢. مسند أحمد، ج ٩، ص ٤٩٣، ح ٢٥٢٤٩

و تنضم إلى إدراكاتها الكلية إدراكات جزئية ، فتنبعث منها أشواق وإرادات جزئية توجب حركات جزئية ، كما هو حال النفوس الإنسانية في تحريكاتها عند إرادة تحصيل المطالب ، و بكل حركة يحصل للمتحرّك بها وضع جديد ، تفيض بذلك الوضع على النفس المجردة الفلكية من معشوقها صورة عقلية هي كمال لها و إشراق نوري يوجب لها لذة جديدة و شوقاً جديداً إلى كمال آخر وإرادة لتحصيله .

و على هذا تتعاقب الحركات ، و تتلاحق الأوضاع ، فتتوالى الصور على النفوس السماوية ، و يتواتر فيضانها على المواد متتالية ، فتعاقب استعداداتها لقبول الصور و تترادف الصور .

و لما تقرر أن ثبوت الصور في معشوقات النفوس الفلكية التي هي الأرواح و العقول بلا تغيير هو القضاء ، فحدوثها في النفوس الخيالية السماوية المنطبعة في أجرامها متشخصة هو القدر .

و بعضهم يطلقون القدر على حصول تلك الصور في موادها المتعينة في الخارج ، و يرون أن المحو و الإثبات لا يكون إلا في المواد و الصور الجزئية المنطبعة في الفلكيات ثابتة أبداً بلا تغيير .

و أما المحققون فهم يقولون : إن المحو و الإثبات فيها ، بنفسها الكون و الفساد في المواد .

و أما النفس الناطقة الإنسانية فكما لها بحسب القوة العملية أن تكتسب الملكة الفاضلة و العدالة ، و هي اعتدال القوى الشهوانية والغضبية و التدبيرية .

و أما كما لها بحسب القوة العقلية فهو بأن تصير عالماً عقلياً مرتسماً فيها صور كل الموجودات إلى الجواهر الشريفة الروحانية العقلية ، ثم إلى الجواهر الروحانية المتعلقة بالأبدان ، ثم الأجرام العلوية بهيئاتها و قواها حتى تستوفي في نفسه هيئة جميع الموجودات كلها ، فينقلب عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود في الأعيان كله ، فحصل لها مشاهدة لما هو الحسن المطلق و الخير المطلق .

فهذا أنموذج من أحوال عالم الملكوت الأدنى .

و أما عالم المثال فهو عند الإشراقيين عالم موجود غير قائم بالقوى الجسمانية ، بل إنما يكون القوى مظاهر له ، و ما يرى الإنسان في النوم إنما يكون في هذا العالم .

و أمّا عند غيرهم فهذا العالم إنّما هو قائم بالقوى الجسمانيّة، و لهذا لم يعتبر في مراتب الجواهر، و قالوا: إنّ مراتب الجواهر أربعة: إحداها العقول، و ثانيها النفوس، و ثالثها الطبائع، و رابعها الهيوليّات .

و وضعت قدماء الحكماء لواجب الوجود الواحد و الألف، و للعقول الاثنين و الباء، و للنفوس الثلاثة و الجيم، و للطبائع الأربعة و الدال، هذا إذا اعتبر الواجب الوجود باعتبار ذاته و النفوس و الطبائع باعتبار ذواتها .

و أمّا إذا اعتبر الواجب الوجود باعتبار تأثيره في الممكنات، فوضع له تعالى الخمسة التي [إذا] ضربت في نفسها، ظهرت [في] حاصل الضرب، و في حاصل ضربها في مربعها، و هكذا في المراتب التي بعد التربيع .

والهاء التي قيل: هو الأصل في لفظ «الله»؛ فإنهم قالوا: أصل هذا لفظ «ه»، ثمّ أشبع تارة فصار «هو» و ألحق إليه اللام تارة فصار «له»، فله الخلق و الأمر، ثمّ ألحق إليه اللام الأخر تارة فصار «لله»، فلله ما في السماوات و الأرض، و ألحق إليه الألف و اللام أخرى فصار «الله» .

و في هذا الاسم الأعظم أسرار و خصائص لا تحصى .

و وضع للعقول باعتبار تأثيرها فيما تحتها الستة و الواو، و وضع للنفوس باعتبار تأثيرها في الأبدان السبعة و الزاي، و وضع للطبائع باعتبار تأثيرها في الهيوليّات الثمانية و الحاء، و وضع للهيوليّات التي في غاية الهبوط التسعة و الطاء .

فأصول الموجودات هذه التسعة، كما أنّ أصول الأعداد تسعة، هي من الواحد إلى التسعة؛ فإنّ جميع الأعداد الباقية إنّما يحصل منها، إمّا بالتركيب أو بالضرب، و لهذا وضع حكماء الهند- الذين لهم الدرجة العلى في معرفة الأشياء- تسعة أرقام لهذه الأعداد التسعة .

و في اختيار وضع هذه الأرقام لطائف دقيقة تظهر بالتأمّل بمعونة ما ذكر من وضع هذه الأعداد التسعة لمراتب الموجودات، مثل لميّة كون رقم الثمانية عكساً لرقم السبعة باعتبار العلوّ و السفّل، و لميّة كون رقم الستة عكساً لرقم الاثنين باعتبار اليمين و الشمال .
فذلك أنموذج من أحوال الممكنات .

